لغة الأدب

للأستاذ يوسف جوهر

على النيل ، بين القاهرة وحلوان ، طريق للسيارات ، ضيق ردىء

ومنذ عامين تقرر توسيعه وإصلاحه ؛ وإنه لمشروع جليل

والمشروعات الجليلة فى بلادنا كانت إلى زمن قريب لا ترى النور إلا إذا تبركت بمقام أحد الأولياء ، أو مستها كرامة قديس .

وكنت تسمع ، دون أن تدعو نفسك للدهشة والعجب ، أن هذا الجسر لم يكن ليقام لولا نفوذ فلان باشا ، ونفعه المحقق لأرضه ، وأن ذلك الشارع ما كان ليمهد لولا أن لفلان باشا فى هذا مأربا . . وعلى هذا النسق كان طريق حلوان خليقا أن يظل « مزنوقا » بين النيل وأرض الله الواسعة التى تحف به ، لو لم يكن للملك السابق فيه مقام اسمه « ركن فاروق »

قد يكون هذا حقا ، وقد يكون بعض ظن السافرين . . والسافرون كان لهم ، إلى عهد قريب ، منطق ممرور ، ودعاء مرفوع : أن يقرى الله أصحاب المصلحة الخاصة بخدمة « المصلحة العامة » حتى ترى حاجات الشعب النور وتأخذ طريقها إلى الظهور

* * *

وفيما مضى لم يكن أحنى من الحكومة على المقاولين ولا أشد برا بهم . إن المقاول ليبدأ عمله ، ثم يتوعك ، ثم يضطرب نبضه ، ويحل موعد التسليم . . وتمضى شهور ، وربما تمر أعوام ، والمقاول ينتقل من اضطراب النبض إلى غيبوبة لطيفة لا يكترث فيها بشىء ، ولا تمكر عليه صفوه الحكومة صاحبة الطريق ، لأن الحكومة سيدة بارة طيبة يملأ قلبها الحنان

ولكن العمل هذه المرة بدأ بنشاط ملحوظ ، ولم يضطرب نبضه ، ولم تأخذه إغفاءة ولا إغماءة ، فإن طريق حلوان طريق ملكى ، وليس أشد من الملوك غيرة على الصالح العام . . ومن أجل الصالح العام بدأ الإصلاح من نهاية الطريق المحيطة بركن فاروق ، نيمنا بالمقام الملكى ، وقربى من كرامات الأولياء ، وبركات القديسين

* * *

وانتشر العمال الذين جاء بهم المقاول لإنجاز المشروع انتشار النمل

جاءوا .. ترحيلة

والترحيلة هى مجموعة من الفعلة الذين يبتسم لهم الحظ ، ويجدون عملا لأمد طويل ويرحلون من قراهم فى قطيع كبير يستخفه حلم جميل .. حافل بالخير

وعلى جانب الطريق حطوا الرحال ، وأقاموا الخيام .. وملأت المكان زكائب الخيز ، والزلع والجرار

وكان الخبز من الذرة ، يفوح منه مع رائحة الحلبة عطن حيث .. والأوانى الفخارية كان بعضها مفعما بسائل عفن تسبح فيه قطع من اللفت أو ورق الكرنب الذى تهرأ من القدم .. وبعضها الآخر كان مملئا على وجبات أشهى ، قوامها دود كثير يعيش فى جبن قليل

وكنت أراهم كل يوم وأنا أقطع الطريق بسيارتى بين حلوان والقاهرة ، يعملون فى وقدة الشمس المحرقة ، وفى الليل والصقيع يسهر وهم أشباه عراة .. وراقبتهم وهم يشربون الشاى الأسود فى علب الأطعمة المحفوظة ، ويدخنون التبغ المصمغ بالعسل جماعات من قصبة واحدة ، وأغانيهم تسيل شاحبة منهوكة على تراب الطريق

ورأيتهم عن قرب ، وتذكرت هواجس الشعراء والحالمين وهم يتخيلون ابن الحقول يهد الدنيا بعضلة المفتول ، ويضحك للشمس ملء فؤاده السعيد ، ويترك التعاسة لهؤلاء الأغنياء الذين يتلفهم الترف ، وتتقسمهم العلل ، ويحيط قلوبهم بالشحم الوبيل صمم الطعام .. تذكرت هؤلاء الحالمين وأنا أرى عن كثب أصحاب العضل المفتول مهزولين يترنحون من التعب ، صفحات وجوههم المكروبة كأنها ورق قديم اصفر من فرط ما لذعته الشمس .. وابتساماتهم دموع تجمدت على الشفاه .. وشدوهم أنين يضمدون به الجراح

* * *

وذات صباح رأيت واحدا منهم تقتله الشمس .. سقطت الفأس من يده .. ووقع على جنبه .. وتوسد خده الثرى الذى كان يلبثه منذ لحظات

مات فى لحظة ، وكأنه حشرة شخصها قدم

أ كان مريضا بالقلب وقتلته العلة ؟

من يدرى وهو فى بلد يعيش فيه الناس ويموتون دون أن يصل إليهم الطبيب مرة فى العمر

هل ضربته الشمس ؟ من يدرى وهو ابن قوم لا يعنيهم كم ساعة يعمل الأجير فى الشمس الشريرة الخانقة ..

يستوى من يسقط قلبه السقيم بمن تضربه الشمس الشريرة ، ومن تصرعه الحمى بمن ينهار عليه جرف الطريق ويدفن حيا فى التراب . . إنهم يذهبون جميعا بلا دية ، فإن الحشرات لا ثمن لها

* * *

ورأيت رفاقه يحيطون به ويبكون . . إنهم ليسوا أقوياء ولا قساة كما يتوهم الشعراء . . إنهم يكسرون الأحجار ولكن ما أيسر أن تتكسر قلوبهم وتتفطر . . إن أحدهم يضع فى فم الميت جرعة ماء ، ويرجع الماء فيلتى الكوز من أصابعه المرتعشة ويلطم وجهه . . وهذا الشيخ يسند الجثة إلى صدره ويبوح بصوت خشن مذبوح : «ماذا نقول لأمك . . وزوجتك . . ياحسن . . كيف نعود ونرى أطفالك وأنت لست معنا يا حسن ؟» . . والباقون ينتحبون مذعورين ، لا فرق بين نحيبهم وبين شدوهم الذى كنت أسمعه يسيل محزونا شاحبا على تراب الطريق

ونظرت من خلال الأجفان المنمضة نصف إغماضة إلى عينى الميت الزجاجيتين ، وتذكرت أن هذا الزجاج كان يبصر منذ دقائق ، وكانت تنطبع عليه الصور

ولكن هل أبصر حقا ؟ ماذا رأى من دنياه ، إنه نام وتقلب على التراب . . ملأ بطنه بورق الكرنب ، والدود ، والعطن . . وشرب من وحل القنوات . . هل عاش أهنأ مما تعيش الدواب ؟ هل نظر أفضل مما تنظر قطط صغيرة عمياء تأكلها أمها قبل أن تتفتح عيونها

* * *

وابتعدت . . تركت الموتى يبكون ميتهم . . وبعد خمسين مترا مررت « بركن فاروق » . وافترس الغيظ قلبى . . وأحسست أن أخنقه . . تصفعنى

تذكرت أن (الملك) مر عشرات المرات من هنا . . ولابد أنه رأى الحفاة والمراة والشمس تقهرهم . . وعندما كانت سيارته تمر فى ليل يسابر هل كانت كل نظراته إلى محظياته ونسائه . . ونسائه الناعمات ، الراويات من الفجور ؟ ألم تحن منه التفاتة إلى النائمين وتحت جنوبهم الأرض الرطبة وفوقهم السماء الباكية ! . . هل شغل نفسه مرة بأمر من كان يسميهم فى خطبه « شعبى العزيز » . . هل فكر يوما فى أوانى الفخار المقفلة على الدود . . وفى الخبز اليابس القاتم الشق . . ألم يرعه وهم يغترفون بأكفهم القذرة المشققة الماء الأحمر من النيل ، فيندى جبينه ويهتف كما كان يهتف فى الذباع : لا يا شعبى العزيز . . إن ركن فاروق على

بعد خطوات .. ادخلوا واشربوا ماء نقيا .. إن هـذا لن يكلفنى شيئا .. ادخلوا واستريحوا فى ظل الأشجار .. واحتموا بالأسوار من البرد .. هذا لن يكلفنى شيئا يا شعبى العزيز »

وقال لى خاطر رحيم : ليته يمر الآن ، ويرى الجنة ، ويتحرك قلبه

وقاطعنى خـاطر نافم .. إنك كنت تضحك من الشعراء الواهمين الحـالمين .. هذه أفكار شاعرية .. لو مر الملك من هنا لقال بكبر هـذا السملوك نخرا أنه مات فى طريق ملكى . وهذه الكلاب يكفيها أن يهش مولاها لها .. ولا يسوقها بالسوط والكرباج .. إن أجدادى كانوا يسمون هؤلاء المصريين الأذلاء « عبيد إحساناتنا » أما يكفيهم أننى أمنن فى الرقة والتواضع وأدعوهم « شعبى العزيز »

* * *

وكنت كلما مررت بسيارتى قرب ركن فاروق أرى بقلبى المهين وبكبريائى الجريح جثة حسن وعينيه الزجاجيتين .

كنت أرى رفاقه يواصلون عملهم المنكود ، ويسكبون أحمارهم ، وقوامهم ، وشدوهم الشاحب الحزين على تراب الطريق فأرى مجموعة من الجثث لا تلبث أن تغيب فى المجهول كما تغيب الشرع الهامئة على صفحة النيل

* * *

والآن وقد تبدل الحال غير الحال ما أزال أرى عينى حسن كلما مررت فى طريق حلوان

ولكنهما ليستا من الزجاج المتم . . إنهما تبرقان وتقولان لى : « أيها المتشائم إننى لم أكن حشرة ، ولا قطة ، ولا بهيمة . . إننى كنت روحا عظيما . . والأرواح عندما تزهق ظلما لا تذهب سدى . . إنها تتحول إلى لعنات . . اللعنة أخذت مكان الفأس فى يدى . . صرت بعد موتى فأسا غير منظورة تعمل فى العرش البغيض وتفتش طريق الملك المنكود . . أنا لم أمت على مجرد طريق للحرية يرصف كما تتوهم . . إن جثتى سقطت على طريق يمتد ويتشعب فى قلب مصر كلها .. إن الأرواح عندما تزهق ظلما لا تهمل الظالم . . إن الأرواح البريئة . . لا تذهب سدى

يوسف جوهر